إحياء التراث ونشره

تجشم المتاعب لجمع التراث، والبواعث التى تكمن وراء صنيعهم الجليل، وجدنا هذه البواعث يمكن تقسيمها الى ثلاثة بواعث : الباعث القومي، والباعث الديني، والباعث الاجتماعي.

أما الباعث القومي فيتمثل في عدم رضى العرب عما أصاب لغتهم من خلط وهجنة وعجمة بسبب تحدث الأجانب بها. فقد دخلت عليها تغييرات هددت صورة وقعها وجرسها وطبيعة تكوينها وتركيبها بالمسخ، فخشى العرب على لغتهم من الفناء والذوبان في لغات الاعاجم لذلك نشأ مبدأ تنقية اللغة العربية وذلك عن طريق جمعها أولا، ووضع القواعد لها ثانيا ثم تعليمها بعد ذلك، ضمانا لسلامتها من هذا الخلط الذي كان يهددها في أصولها وحركتها وأصواتها.

ويتمثل الباعث الديني في خوف المسلمين من تسرب اللحن الى القرآن الكريم، ومن ثم بدأ التفكير في وضع النحو، وحملهم التفكير في وضع علم النحو، على جمع اللغة بطريق مشافهة الأعراب والأخذ عنهم، كما حملتهم الرغبة في فهم معاني بعض الألفاظ التى وجدت في القرآن الكريم والحديث الشريف الى الرحلة الى البادية للوقوف على معانى هذه الألفاظ، وتلك التعابير، وجمعوا الشعر وحفظوه ليستعينوا به على فهم ألفاظ وتعابير القرآن الكريم.

أما الباعث الاجتماعي فيتمثل في رغبة المولدين، وحرص الشعوب المستعربة على تعلم اللغة العربية ليستقيم لسانها من ناحية، وتشارك في الحياة العامة للدولة من ناحية أخرى، فقد كان خلفاء بني العباس لا يعينون في وظائفهم الكبيرة إلا من تفوق في اللغة العربية.

وظل الرواة خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة مشغولين في جلد منقطع النظير في جمع التراث وتدوينه. ثم استحدثت الأجيال الأسلامية بعد ذلك أنواعا من التأليف في علوم أخرى كالتفسير، والحديث، والفقه، والعقائد، والملل والنحل، والفلسفة، وتاريخ الاسلام، والنظم الاسلامية، وتراجم الأعلام، وطبقات الرجال، فتركوا لنا تراثهم، الخصب في علوم الاسلام. وحرص خلفاء الدولة العباسية على إثراء التراث العربي عن طريق تشجيع الترجمة من اللغات المختلفة الى اللغة العربية، ففي ذلك العهد نقل المترجمون كثيراً من الاعمال العلمية والأدبية من الفارسية والهندية.

واليونانية الى اللغة العربية ، وبعث الخلفاء بالنساخ الى مكتبات الدول ذات الميراث الحضاري لينسخوا لهم ما عرفت الدنيا لعهدهم من كتب ذات بال .

وصاحب حركة جمع التراث وتدوينه العناية بانشاء المكتبات العامة تفتح للدارسين وطلاب العلم، ففي بغداد أسس هارون الرشيد بيت الحكمة لتضم كل ما جمعه من مخطوطات التراث ، وخصص فيها جناحا للترجمة، وضمت بيت الحكمة كثيراً من الفنيين من خطاطين ونساخ ، ومجلدين ومذهبين .

وفي القاهرة أسس الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي تولى الخلافة سنة ٣٦٥ هـ مكتبة القاهرة ، وكان العزيز شديد الولع باقتناء الكتب والحرص على جمعها والاستكثار منها وبذل الأموال الطائلة لها . ويذكر المؤرخون أرقاما ضخمة لرصيد المخطوطات التى كانت تضمها هذه المكتبة .

وفي بلاد الاندلس أسس المستنصربالله مكتبة قرطبة الكبرى في قصر الزهراء المشهور وكان يبعث التجار الى الأقاليم ليشتروا له المخطوطات ليضمها الى هذه المكتبة كما كان يتتبع أنباء ما يظهر من جديد المؤلفات ونوادر المخطوطات ويسعى في سبيل جلبها الى مكتبة الزهراء . وجمع المستنصر بالله في مكتبته النساخ والخطاطين والمجلدين والمترجمين لينقلوا نوادر التراث من العربية الى الأسبانية واللاتينية .

وبجانب هذه المكتبات الرسمية الكبيرة كانت توجد مكتبات خاصة بالأمراء والقواد ورجال العلم والأعيان ، ويحدثنا التاريخ عن مكتبات أخرى يطول الكلام في الحديث عنها مثل مكتبة المدرسة النظامية ، ومكتبة سيف الدولة في حلب ، والمكتبة الظاهرية في دمشق ، ومكتبة جامعة الزيتونة في تونس ، ومكتبة جامع القرويين في فاس .

لقد وقف أجدادنا ما جمعوا من كنوز تراثنا الروحي والعلمي على خدمة العلم والدين ، وأودعوه بيوت الله اعتقادا منهم أنه في دور العبادة بمأمن من الضياع .

إن ظاهرة الحرص على تراث الأجداد كانت عامة في جميع أنحاء الوطن العربي لم ينفرد بها إقليم دون آخر ، وكان النساخ يقومون بنسخ مئات النسخ من المخطوط الواحد تلبية لطلب الخلفاء والأمراء والقادة والأعيان والعلماء . ولعل خير مثال يؤكد لنا ذلك ما حدث إبان عهد الخليفة المستنصر العلوي (٤٢٧هـ) عندما تمرد عليه الجنود الاتراك يطلبون دفع مرتباتهم وعندما عجز الخليفة عن تلبية مطالبهم أرغموه على بيع مخطوطات مكتبته ، ثم سطوا على مخطوطات مكتبة العزيز ودار العلم والجامع الأزهر وباعوا مخطوطاتها في الأسواق بثمن بخس ، واتخذ بعض الجنود من جلود المخطوطات نعالا . وبفضل إيمان كثير من المصريين بقيمة

تراثهم تطوع عدد من أهل القاهرة بشراء المخطوطات التى عرضها الجنود للبيع واحتفظوا بها في خزائنهم الخاصة صيانة لتراث العروبة والإسلام .

وفي تونس اهتم التونسيون منذ أقدم العصور بجمع المخطوطات واستنساخها فوضعوها في بيت الحكمة ، وقصور العباسية والمنصورية ، ورقادة وجامع عقبة وفي مكتباتهم الخاصة .

وكان للأغالبة فضل كبير في ذلك وخاصة في عهد ابراهيم الثاني الأغلبي الذي أرسل بعثة الى الفسطاط ودمشق وبغداد لاستقدام نخبة من العلماء الى عاصمة ملكه رقادة لينقلوا له الكتب النادرة ، كما كان يرسل الى كبار علماء القيروان لتصحيح مخطوطات مكتبته وشكلها وتفسير مفرداتها . واستمرت العناية بالتراث العربي في عهد الصنهاجيين وخاصة في عهد المعز بن باديس فقد بذل في سبيل نسخ المصاحف والكتب العلمية على الرق وتذهيبها وزخرفتها وتزويقها وتجليدها المبالغ الضخمة ، وأوقف هذا التراث الضخم على مكتبة الجامع الكبير بالقيروان .

وعلى الرغم مما أصاب المكتبة التونسية من أضرار ومحن ونكبات أدت الى ضياع العديد من المؤلفات والأسفار فإن التونسيين كانوا جد حريصين على تراث عروبتهم إما بالشراء وإما بايداعه في أماكن لا تصل إليها يد المستعمر .

أما المغرب فقد عرف منذ قديم الزمان بكثرة خزائنه وما يضمه من مئات الألوف من المخطوطات النادرة والكتب النفيسة . واهتم الملوك الذين تعاقبوا على حكم المغرب بجمع المخطوطات والمحافظة عليها . وأهم هؤلاء الملوك السعديون ، ويبرز من بينهم المنصور الذهبي ، وكان يدعو العلماء للتأليف لخزائنه ويجزيهم بسخاء . وكان له مبعوثون في كل ناحية من نواحي العالم يبحثون وينقبون ويوجهون إليه النادر والغريب من المخطوطات العربية في شتى فنون المعرفة .

وفي فترة الحماية الفرنسية قام المغاربة بجمع المخطوطات والوثائق ووضعوا بعضها في سراديب ، وبعضها الآخر داخل جدران القصور والمباني ، وتم البناء عليها ، خوفا من سطو الاستعمار على هذا التراث النادر الثمين .

واقع التراث الراهن :

من المؤسف أن هذا التراث الضخم الذي خلفه لنا الأجداد لا يجد العناية الكافية التى ينبغى أن نوجهها اليه في الوقت الحاضر . فميدان الاهتمام بالمخطوطات العربية وتحقيق النصوص القديمة لا يغرى سوى فئة قليلة جداً من الدارسين والباحثين ، لأن العمل في هذا الميدان ربما لا يتيح لأصحابه ما تتيحه المجالات الأخرى من الصيت والشهرة ، كما أن العمل في إحياء التراث ليس عملا هينا

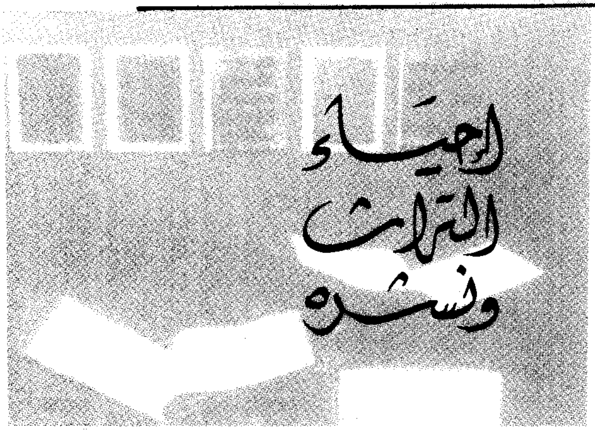

يسيرا ، بل هو عمل شاق مرهق ، تحف به صعاب لا تكاد تحصى ، صعاب في فحص عناوين المخطوطات ، والتوثق من نسبتها الى مؤلفيها ومن مادتها ومضمونها ،وصعاب في مقابلة نسخها ومعارضتها على كل ما أشتق فيها من روايات فرعية واقتباسات ، وصعاب في جمع النسخ ، وصعاب في اصلاح سقطات الكلام وتصحيفات النساخ ، مع ضرورة عرض مادة النص وما يحتوى عليه من مضمون على كتب المكتبة العربية ، وكلها صعاب ما يزال المحقق لنص من نصوص تراثنا ينفق في تذليلها الأعوام الطوال حتى يصبح النص نقيا صافيا مهيئا للانتفاع به والإفادة منه .

وعلى الرغم من الجهد المخلص لهذه الفئة القليلة من علمائنا العرب الذين يعكفون على نشر تراثنا العربي بجميع فنونه وفروعه ، وما يحمل هذا الجهد في طياته من إيمان بماضينا العريق ، ومن إحكام للصلة بين نهضتنا الحاضرة وبين تراثنا الخالد ، إلا أن هذا الجهد لا يمثل إلا جدولا صغيراً من نهر تراثنا الذي تزخر به المكتبات في الشرق والغرب .

إن الجهود التى تبذلها بلادنا العربية في جمع المخطوطات وتصويرها والمحافظة عليها وتحقيقها تعد جهودا متواضعة لو قورنت بجهود علماء الاستشراق الغربيين ، ، فقد أسست كثير من جامعات أوروبا وأمريكا أقساما للدراسات الشرقية تعلم اللغة العربية وتحث المستشرقين والدارسين على دراسة التراث العربي وتحقيقه ، كما أنشأت هذه الدول جمعيات ومجلات خصصتها للاستشراق .

إن المسئولية الملقاة على عاتقنا تجاه هذا التراث جد كبيرة ، فهذا التراث هو التراث العربي الاسلامي ، وهو تراثنا نحن وليس تراث المستشرقين ومن واجبنا أن نتحمل نحن عبء جمعه واحيائه قبل غيرنا ففائدة الاحياء تعود علينا نحن قبل غيرنا ، ومن ثم نجد أنفسنا حيال مهام اذا قسناها وقارناها من حيث الجدية والضخامة وشرف القدر والغاية بما هو حادث الآن في حقل احياء التراث ، وجدنا أنفسنا في وضع مختلف أو حال لا نحسد عليه .

وهناك جهات كثيرة يمكن أن تقوم بدورها بصورة أفضل مما هو الآن خاصة في مجال جمع المخطوطات وفهرستها والتعريف بها واختيار بعضها وتحقيقه من هذه الجهات

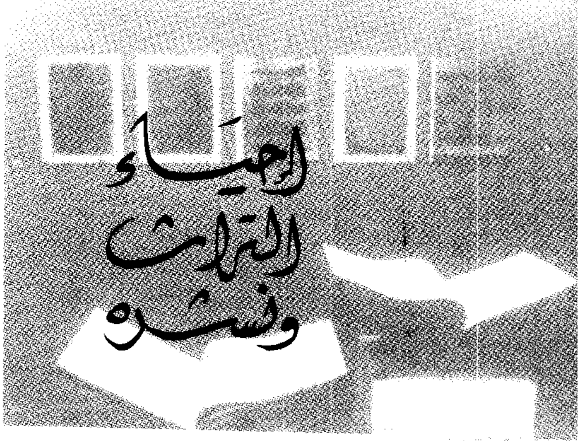

إحياء التراث ونشره

المجامع العلمية واللغوية ، ومراكز تحقيق التراث ونشره التى أنشأتها بعض الجامعات العربية ، وحث طلاب الدراسات العليا على القيام بهذا العمل واتخاذ تحقيق بعض المخطوطات موضوعات لرسائلهم في الماجستير والدكتوراه .

دور الاستعمار في تبديد التراث

تمتلك الأمة العربية الاسلامية تراثا كبيرا ، يمثل حلقة ضخمة من حلقات تطور الإنسانية واطراد النشاط الفكري العالمي . ويقدر عدد المخطوطات العربية الموجودة في العالم بنحو ثلاثة ملايين مخطوط على أقل تقدير .

ويتعجب المطلع على الكتب التى عنيت بحصر التراث ، وذكر أسماء المخطوطات من تلك الأعداد الهائلة التى نصت عليها ، والتى ليس لها نظير في أية حضارة من حضارات العالم . فقد حصرت تلك المصادر مئات الألوف من الكتب التى نطلق عليها اسم التراث العربي . ومما يدل على كثرة المخطوطات التى خلفها لنا الأجداد أننا حين نطالع كتب تراجم العلماء منهم نجدها تذكر الكتب التى ألفوها ، والتى تعد بالعشرات أو المئات للعالم الواحد . ولكننا حينما نبحث عن الموجود منها لا نجد إلا واحدا أو أثنين ، وقد لا نجد شيئا . فمنذ عصر التدوين والمكتبة العربية يزداد رصيدها كل يوم من المخطوطات العربية ، ويكفى للمرء أن يعرف أن فهارس مكتبة الصاحب بن عباد المتوفي سنة ٣٨٥هـ بلغت عشرة مجلدات . وذكر ابن خلدون أن مكتبة الحكيم المستنصر الأموي والذي كان في قرطبة من سنة ٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ بلغ عدد فهارسها أربعة وأربعين فهرسا ، في كل فهرس عشرون ورقة ، وليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير .

ويقدر بعض المؤرخين ما أتلفه الصليبيون في (طرابلس) وحدها بثلاثة ملايين مجلد (مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ١٦٢) ويحدثنا التاريخ «أن أحد الأطباء رفض دعوة سلطان بخارى للاقامة عنده في بلاطه لأنه يحتاج الى أربعمائة بعير لنقل مكتبته (جلال مظهر . حضارة الاسلام وأثرها في الترقي العالمي ٣٨٤) .

فاذا كانت الكتب في مدينة واحدة (طرابلس) نحو ثلاثة ملايين ، والكتب التى في مكتبة خاصة لواحد من الاطباء تبلغ حمل أربعمائة بعير ، فكم يبلغ ما كان في المدن الاسلامية كلها ؟

وما كان في المكتبات الخاصة كلها (عبدالعظيم الديب ، المستشرقون والتراث ، ١٩٨٦ ، ص ٦) .

ومما يؤسف له أن هذا التراث الجم الغفير تفرق في جميع أنحاء العالم نتيجة لكثير من العوامل التاريخية والإقتصادية والسياسية والفكرية التى مر بها الوطن العربي ، وما تعرضت له الأمة العربية من هجمات استعمارية من الخارج ، ومحن فكرية وثقافية في الداخل ، فقد كان للبعثات التبشيرية والتجارية والسياح والرحالة الأجانب والغزاة المستعمرين الأثر الكبير في جمع ما تضمه بلادنا من نفائس المخطوطات ونوادرها وتهريبها الى الخارج بحيث أصبحت مكتباتهم ومتاحفهم تزخر بآلاف المخطوطات التى تفتقر الى وجودها مكتباتنا . ومما ساعد على تفرق المخطوطات وتوزيعها في كثير من بلدان العالم اتساع رقعة الثقافة الإسلامية ، بحيث شملت جميع بقاع الوطن العربي والأقطار الإسلامية على ترامي المسافات وتباعدها .

واجب الأمة العربية والاسلامية نحو التراث

وواجب الأمة العربية والإسلامية وهي تسعى في الوقت الحاضر الى استعادة مكانتها الحضارية أن تحقق انتماءها الثقافي والفكري بالعناية بتراثها وجمعه والحفاظ عليه واحيائه ودراسته ، حتى تقوم حياتها الفكرية المعاصرة على أسس من جهود علمائها وأدبائها السابقين دون تفريط في امتدادها التاريخي العريق .

وإذا رجعنا إلى التاريخ في محاولة للتعرف على دور الغزاة والمستعمرين في تبديد تراثنا والقضاء عليه إما بالحرق والإغراق أو النقل إلى بلادهم تلقانا موجة زحف التتار على الشرق العربي في مطلع القرن السابع تدمر كل مظهر للحضارة الإسلامية العربية في خراسان وفارس والعراق ، وتسقط بغداد سنة ٦٥٦هـ في أيديهم ، ثم يدمرون ويحرقون بيت الحكمة والمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية ، وغيرها من المكتبات وخزائن الكتب وصروح العلم الزاخرة بالتراث العربي ، وما تبقى من ذخائر التراث العربي ألقى في نهر دجلة ، حتى ليروى ان المخطوطات العربية سدت كثرتها مجرى النهر ، وعبر الناس عليها بين شطي النهر كأنها جسر قائم وعبرت خيل التتار بين شاطىء دجلة على هذه المخطوطات التي ألقيت في النهر . كما روى ان مياه نهر دجلة ظل لونها متغيرا فترة طويلة من اثر اختلاط مداد المخطوطات بها .

وفي بلاد الأندلس منى التراث العربي بنكسة لا تقل ضراوة عما أصابه في المشرق العربي على يد التتار . فعندما سقطت الأندلس في أيدى الأسبان خربوا دور العلم وأحرقوا المكتبات والمدارس ، وحولوا المسجد الأموي بقرطبة إلى كنيسة كاثوليكية ، واتخذوا من مسجد

طليطلة اصطبلا لخيولهم . ولم يسلم من مخطوطات الأندلس التي كانت في مكتباتها أو في خزائن حكامها وأمرائها وعلمائها سوى ما حمل إلى أوروبا أو حمله المسلمون الفارون إلى المغرب .

وعندما جاء الغزو الصليبي إلى الشام ومصر أحرق الغزاة من تراثنا ذخائر لا تعوض ، وحملوا منه إلى الغرب الشيء الكثير .

ولا يكاد يسلم بلد من البلاد العربية التي بليت بالاستعمار من مداهمة مكتباته والاستيلاء على ما فيها من كتب ومخطوطات ووثائق بالسلب أو السرقة أو الشراء ونقلها إلى مكتبات ومتاحف أوروبا وحفظها فيها ، حدث ذلك إبان الحملة الفرنسية على مصر ، وإبان الاحتلال الانجليزي . وحدث ذلك من سلطات الاحتلال الايطالي إبان إستعمارها لليبيا . ولم يقف الأمر عند حد نقل التراث العربي إلى الغرب بل تعدى ذلك إلى الحرق والإبادة والقذف به في مياه البحر المتوسط ، فقد روى المستشرق الايطالي أوجينو قرفيني ان سلطات الاحتلال الايطالية كانت تحمل المخطوطات والوثائق والسجلات على عربات وتقذف بها في مياه ميناء طرابلس ، وشهادة هذا المستشرق محفوظة في دار الوثائق التاريخية في طرابلس .

وفي تونس عبثت يد المستعمر الفرنسي بالتراث العربي خطفا وتمزيقا ودوسا بسنابك الخيل ، فقد تشتتت محتويات المكتبة التونسية من التراث العربي في مكتبات العالم من ذلك ما يوجد في فرنسا والفاتيكان والهند . وخرجت كثير من كتب جامع الزيتونة النادرة والتي عليها خطوط ملوك بني حفص ، أو توزعت في مكتبات الشرق والغرب .

أما في الجزائر فقد كانت صورة التبديد أقوى وأشد ، ومن مكتبات الجزائر التي نهبت من قبل سلطات الاحتلال مكتبة الأمير عبدالقادر الجزائري وجل مخطوطات هذه المكتبة التي كان ينقلها معه إبان مقاومته الاستعمار الفرنسي ضاعت في موقعة «طاكين» التي كانت بينه وبين الفرنسيين . وعرف تاريخ الجزائر الثقافي مكتبة الشيخ الحداد الجزائري ببلاد القبائل الكبرى التي استولى عليها الفرنسيون بعد ثورة سنة ١٨٧١م .

وكثير من مخطوطات المكتبة الجزائرية ضمته مكتبات أسبانيا ، وايطاليا ، وهولندا وغيرها من الدول الغربية ولكن غالبية التراث الجزائري نقل إلى فرنسا عنوة بعد مصادرته من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي للجزائر ابتداء من سنة ١٨٣٠م . ومن يرجع إلى مقدمة فانيان ، وهو أول فهرس مطبوع للمخطوطات ، الشرقية من عربية وتركية وفارسية محفوظة بالمكتبة الوطنية في الجزائر يجد أرقاما وأسماء لمخطوطات ضاعت من المكتبة وتسربت إلى فرنسا ، وذكر ان من بين الوثائق الضائعة نحو ٢٠٠ مجلد من بينها سجلان لقرارات الدايات ،

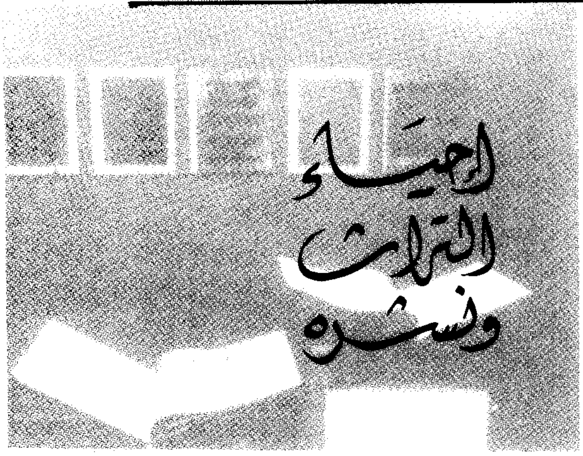

والمئات من العقود والرسائل والوثائق الادارية . وقد عثر على عدد كبير من المخطوطات الجزائرية في مكتبات أسر فرنسية كان أحد أفرادها من الأجيال السابقة التي كانت في جيش الاحتلال العسكري للجزائر .

ولم تسلم المكتبة الوطنية من اعتداء سلطات الاحتلال الفرنسي . وحدث الاعتداء أيضا على مكتبة جامعة الجزائر . وقد ثبت لأحد العلماء الجزائريين العاملين في حقل المكتبات والمخطوطات العربية خلافا لما شاع بعد استقلال البلاد ان مخطوطات مكتبة الجزائر لم تحرق مع غيرها من الكتب المطبوعة يوم أحرقت المكتبة الجامعية في السابع من يوليو سنة ١٩٦٢م ، بل نقلت كلها إلى فرنسا من قبل . وتعرضت كذلك مكتبات المساجد وخزانات الزوايا والتكايا أكثر من غيرها للنهب والسرقة . واتخذ هذا السطو أحيانا صبغة رسمية كما وقع لكتاب (العبر) لعبدالرحمن بن خلدون الذي نقل من المكتبة الوطنية الجزائرية إلى المكتبة الأهلية في باريس بأمر من الأمبراطور نابليون الثالث . واعتمد المستشرق الفرنسي دي سلان على هذه النسخة الجزائرية فيما اعتمد عليه من نسخ لنشر الجزء الخاص بشمال أفريقيا من تاريخ ابن خلدون .

وطوال مدة الاحتلال الفرنسي للجزائر نهبت المكتبات العامة والخاصة على أيدي الضباط الفرنسيين ومساعديهم من موظفين ومستشرقين وباحثين بطرق شتى منها الضغط والتهديد والاغراء والمخادعة والشراء مقابل دريهمات معدودة .

وتعد المغرب من الدول العربية التي كانت غنية بما خلفه الأجداد من تراث عربي واسلامي كبير ، ولكن أسبانيا حينما احتلت تطوان عسكريا وشردت أهلها في حرب ١٢٦٠ - ١٢٧٢هـ ترك المغاربة وراءهم أملاكهم وأمتعتهم وممتلكاتهم الثقافية . فنقل المحتل كثيرا من مخطوطات تطوان إلى مدريد عاصمة أسبانيا ، وهذا ما يفسر وجود كثير من مخطوطات المكتبة الأهلية في مدريد من أصل تطواني . يضاف إلى ذلك ما وقع في المغرب بعد إعلان الحماية سنة ١٩١٢م من هزات عنيفة كانت سببا في تشتت كثير من المكتبات العامة والخاصة ، وانتقال محتوياتها إلى الأيدى الأجنبية .

ولم يكن الاستعمار الأجنبي لبعض الأقطار العربية وحده هو الذي نهب التراث ونقله إلى مكتبات ومتاحف

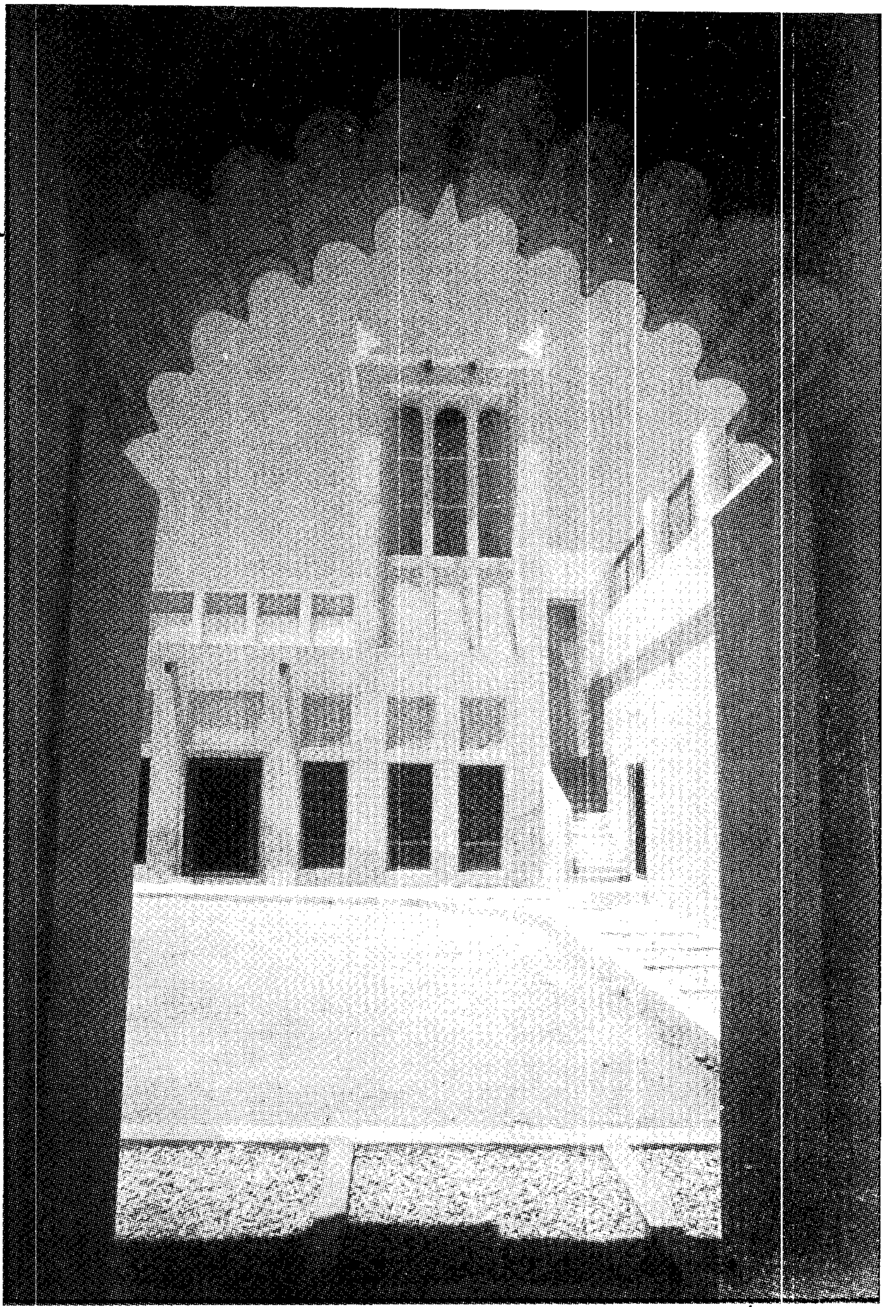

بلاده ، ولكن يشاركه في هذه المسئولية الأتراك العثمانيون فكان لهم دورهم الكبير في نقل التراث العربي من المكتبات والمساجد إلى استامبولٍ وايداعه مكتباتها . ولا أظن أن بلداً من بلدان العالم يحوى من ذخائر التراث العربي ما تحويه مكتبات ومتاحف ودور الآثار في مدينة استامبول . ولا يغيب عن أذهاننا ما فعله السلطان سليم الأول عندما غزا مصر سنة ١٥١٧م فقد جمع كثيرا من الصناع والحرفيين المصريين والتراث العربي وبعث به بحراً إلى استامبول .

وتذهب بعض الدراسات الحديثة إلى ان حرص السلاطين العثمانيين على جمع التراث العربي والاسلامي وايداعه خزائنهم الخاصة أو مساجدهم التي تملأ استامبول وتعرف بأسمائهم وأسماء قوادهم لم يكن عن تقدير لقيمة هذا التراث والرغبة في الانتفاع به ، وإنما كان ارضاء لشهوة التملك والاقتناء ، واستكمالا لمظهرية السلطان ، وارضاء للوجدان الديني عند الجماهير المتدينة التي كان يحكمها العثمانيون باسم الاسلام .

ولا يفوتنا أن نسجل دور البعثات التبشيرية وقناصل الدول الأجنبية في البلاد العربية وقد لبسوا أقنعة خدام العلم ، ورسل الثقافة ، والمبشرين بالتفاهم والتقارب بين شعوبهم وبيننا ، وقاموا تحت هذا الستار بجمع كثير من المخطوطات بشتى الأساليب وأرسلوها إلى دولهم على مرأى من السلطات العربية الحاكمة ، وربما كان ذلك راجعا إلى قصور في قوانين الآثار المعمول بها في البلاد العربية آنذاك . ويحدونا رجاء كبير في أن يزداد وعينا لقيمة تراثنا عمقا ورسوخا فنعجل بدراسة اصدار قانون عربي لحماية المخطوطات العربية والحفاظ عليها من الاستلال الثقافي والعلمي . كما نعجل بالعمل على جمع مخطوطات كل بلد عربي في مكان واحد بعد إعدادها علميا ، وتصنيفها ، وفهرستها ، وطبع الفهرس الخاص بها ، ثم تصويرها على مايكروفيلم خشية تلف المخطوطات الأصلية أو ضياعها بأية طريقة من الطرق .

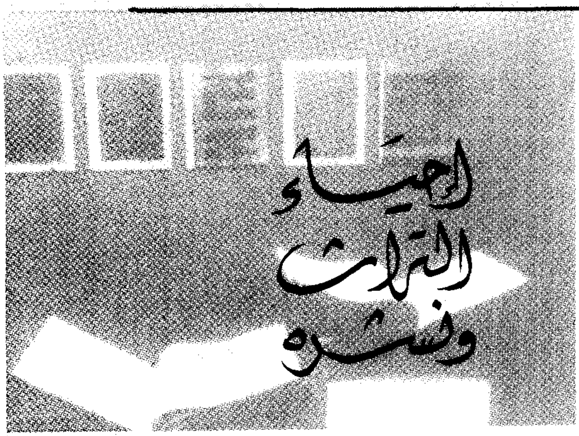

أما بشأن ما تبدد من مخطوطاتنا العربية والاسلامية شرقا وغربا فضمته مكتبات أوروبا وأمريكا وروسيا والدول الاسلامية فلا سبيل إلى استرجاعه الآن ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، والسبيل إلى جمعه والاحاطة به والتعرف عليه هو بتصويره على مايكروفيلم أو طبعه بالطرق الحديثة والاحتفاظ بالنسخ المصورة في وطننا العربي .

لماذا جمع التراث وتحقيقه ؟

وما من شك في أننا إذا كنا جادين في استئناف دورنا الحضاري التاريخي وفي استئناف احياء جامعاتنا العلمية التي أضاءت بنورها كل الغرب ، فعلينا أن نكون على وعي أصيل بقوتنا الذاتية ، ومقوماتنا الراسخة ، وما يضمه تراثنا من ذخائر علمية وأدبية وفلسفية .

إحياء التراث ونشره

ولا يمكن أن تقوم الحضارة الحديثة إلا على أسس ثابتة من أصالة الماضي لأن التراث الحضاري سلسلة متصلة الحلقات يأخذ حاضره من ماضيه ، ويضيف إليه اسهامه الجديد . ومن واجب الأبناء أن يحيوا تراث الآباء ، ويعرفوا به عن طريق تحقيقه ونشره بالأسلوب العلمي .

ولعل من أسباب العناية التي ينبغي أن توجه نحو تحقيق التراث العربي ونشره أن حرفة نسخ المخطوطات التي كانت رائجة في الماضي بدأت تنقرض في وطننا العربي ، ولم تعد كما كانت تدر ربحاً وفيراً على من يشتغلون بها . وهذا التوقف في استمرار النسخ معناه بقاء المخطوطات القديمة على قدمها ، وعدم تجديدها بنسخ جديدة عنها . فإذا ضاع المخطوط القديم أو أصيب بالبلى أو التلف لا نجد نسخا أخرى منه . وتبدو خطورة ذلك إذا عرفنا أن المخطوطات العربية شأنها شأن الكائن الحي يصيبها الهرم بمرور الأيام . وقد تصيبها أمراض الرطوبة والأرضة والتسوس فتطمس كثيرا من صفحاتها وتأتي على المخطوط كله . وأمام هذا الوضع الجديد فإن الخلاص منه لا يكون إلا بنشر هذا التراث .

وسبب آخر من أسباب العناية باحياء التراث اعتماد أكثرية البحوث والدراسات الحديثة على التراث العربي الاسلامي القديم . ويخلص الباحثون المحدثون إلى كثير من النتائج في بحوثهم ودراساتهم اعتمادا على ما تضمه مصادر التراث القديمة من معلومات . ومن الخير للباحث الذي يبحث في موضوع من موضوعات المعرفة أن تتوفر بين يديه كل المصادر والمراجع القديمة التي تعرضت لموضوعه تعرضا مباشراً أو غير مباشر ، للتعرف على وجهات النظر المخالفة والآراء المتباينة التي أبداها القدماء في تناولهم للموضوع . وعلى الباحث المدقق الذي يريد أن يتحرى الصواب فيما يكتب ، وأن ينتهي إلى نتائج سليمة لا تقبل الطعن أو الشك أن يضع أمامه كل ما خلفه القدماء في مادة تخصصه من روايات ، أو أخبار ، أو أسانيد ، أو شواهد ، أو أية مواد علمية ، حتى لا تصدر أحكامه ناقصة أو جزئية خاصة في المسائل الجدلية .

مدارس ينبغي أن نحيى فكرها :

ان كثيراً من الخصائص

والقسمات الأساسية للمدارس والتيارات الفكرية التي حفل بها تراثنا العربي الاسلامي لا تزال بعيدة عنا لاننا لم نقم حتى الآن بتحقيق ونشر الموجود من هذا التراث والذي يمكن أن يعطينا الصورة الكاملة والواضحة التي تجعل لأحكامنا قيمة تذكر .

ان ما طبع ممثلا لأفكار فرقنا الاسلامية يعد قليلا جدا بالقياس إلى ما لم يطبع حتى الآن فأفكار الأشعرية والمعتزلة والخوارج لم تطبع مصادرها كلها . وأفكار المعتزلة لا تزال حبيسة المخطوطات موزعة في مختلف المكتبات ، والكثير مما طبع لم يلق العناية الكافية في التحقيق والدرس والتقديم . ولم تثر حول نصوصه المناقشات الضرورية واللازمة للاستفادة من هذه النصوص . وذلك على الرغم من قلة هذه النصوص التي بقيت للمعتزلة حيث ان الجانب الأكبر من آثارهم قد أبيد بفعل أعدائهم الفكريين والسياسيين عندما اضطهدوهم .

ويمثل الخوارج بفرقهم المختلفة في تراثنا قسمة من أهم قسمات الفكر العربي الاسلامي ، ومع ذلك نجد كل من تصدى لدراستهم يؤكد على ندرة المراجع التي رجع اليها مما يحول دون إنصافهم ، وما زلنا نأخذ آراءهم وأخبارهم ومقالاتهم من مؤلفات أعدائهم ومناهضيهم ، يحدث هذا بينما عشرات المكتبات الخاصة في سلطنة عمان وجزيرة «زنجبار» وبعض المواطن بشمال أفريقيا تزخر بالعديد من الآثار الفكرية التي كتبها علماؤهم والتي فيها رغم قلتها النسبية الكثير عن «مقالاتهم» و«فقههم» وقسماتهم الفكرية المميزة لهم ولعلمائهم وشعرائهم وخطبائهم عن بقية المدارس والتيارات .

ان نظرتنا في دراسة كثير من أدبائنا وعلمائنا ومفكرينا العرب والمسلمين لا تزال نظرة جزئية استخلصناها مما وقع بين أيدينا من نصوص لهؤلاء الأدباء والعلماء ، وليس مما بين أيدينا من «الأعمال الكاملة» لهؤلاء الرواد .

وهناك مفكرون أعلام عرب ومسلمون اختلف الناس حولهم وحول أفكارهم ، كل حسب مجموعة النصوص التي عثر عليها أو التي وجدها موافقة لما يراه ، ومن ثم فقد قدم هؤلاء الاعلام بصدد مجموعة من القضايا بصور مختلفة ومتباينة بل وأحيانا متناقضة ومتعارضة والسبيل المأمون والأمين لجلاء الحقيقة حول موقف هؤلاء العلماء والأدباء من هذه القضايا والأمور أن نطلع على أعمالهم الكاملة حول الموضوع .

وهناك جهد آخر يتصل بالأعمال الكاملة لادبائنا وعلمائنا وهو قيامنا بتجميع الرسائل الصغيرة ذات الموضوع الواحد بعد أن ألف أصحابها لبناتها المتفرقة وجزئياتها الصغرى ، فهناك كثير من الرسائل الصغيرة قد تكون كلها لعالم واحد ، أو لعلماء متفرقين ومقالات متناثرة ، وأجوبة عن أسئلة ، وخطب ،

وأحاديث ، وأمالي تتناول موضوعات هامة وحيوية في فكرنا العربي الاسلامي ونجد الأغلبية من المتخصصين في تحقيق التراث ونشره يحجمون عن الاهتمام بهذه الرسائل . بينما نستطيع إذا وعينا أهمية التجميع والتأليف فيما بينها على أساس موضوعي أن نقدم مجموعة من المراجع والمصادر الممهد لها بالدراسات اللازمة والضرورية تسد الكثير من الثغرات الموجودة في مكتبة تراثنا العربي الاسلامي . وقد قام في العصر الحديث المفكر الاسلامي الدكتور محمد عمارة بتجميع مجموعة رسائل في موضوع (العدل والتوحيد) للإمام الحسن البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ) والامام القاسم الرسى (٧٨٥ ـ ٨٦٠م) والقاضى عبدالجبار بن أحمد (٤١٥ هـ) والشريف المرتضى (٩٦٥ ـ ١٠٤٤م) ، وكذلك مجموعة رسائل الجاحظ التي قام بجمعها وتحقيقها أولا السندوبي ، ثم بعد ذلك عبدالسلام هارون .

وتأتي أهمية تجميع رسائل ومقالات الموضوع الواحد وتقديمها كأثر فكري لدورها في خدمة الباحث الذي يتصدى لدراسة موضوع، معين . وتعاون هذه الرسائل في اعطاء المعالم البارزة للمدارس الفكرية المتعددة التي شهدها تراثنا العربي الاسلامي بجانب الأعمال الكاملة وبذلك نكون قد أنجزنا شيئا هاما وضروريا في ميدان احياء تراثنا العربي الاسلامي ونشره .

ويشكو كثير من الدارسين المحدثين من عدم استطاعتهم استيفاء دراساتهم بسبب نقص المصادر الأصلية في موضوعاتهم ، ويعود هذا النقص إلى تقصيرنا في نشر تراثنا العربي . فهناك قدر كبير جداً من المصادر الأصلية في كل علوم العربية لم ير النور بعد ، وما زال مطمورا في غياهب لا يعلم عنها أحد شيئا . ونتيجة لهذا التقصير في جمع التراث وتحقيقه ونشره ضاعت معالم كثير من الحقائق العلمية ، والآثار الأدبية والفكرية . وخفيت على الباحثين والدارسين كثير من الحقائق التي لا يمكن التثبت منها لعدم تيسر العودة إلى المصادر الأساسية للتأكد من مدى ما تتصف به تلك الأحكام والتصورات من صحة أو خطأ .

ولا سبيل إلى تلافي ذلك إلا بالعمل على تجميع المخطوطات المبعثرة في المكتبات والخزائن وضمها بعضها إلى بعض ، وبذلك يمكن لنا أن نؤرخ للثقافة العربية تأريخا شاملا دقيقا متتبعاً للتطورات المختلفة ، وقائما على اكتمال المادة بين يدي المؤرخ لا على الاستنتاج من جزئيات متباعدة .

ولا مناص من أجل التعرف على حضارة الأمة العربية والفكر العربي من جميع جوانبه من إحياء ما خلفته هذه الحضارة من أعمال فكرية . ونشر المخطوطات القديمة ، سجل ثقافتها الماضية ، ومقياس التطور الفكري فيها بالنسبة لحضارتها هي من ناحية ، وحضارات الأمم المعاصرة

إحياء التراث ونشره

لها من ناحية أخرى .

وعلى ضوء المنشور من هذه المخطوطات نستطيع أن نحدد مكان الثقافة في أمة من الأمم ومدى ما وصلت إليه ، ومقدار النقلة التي خطتها في طريق العلم والمعرفة . ومن هنا تجيء قيمة جمع التراث العربي واحيائه . وبفضل التقدم العلمي الحديث في أساليب التصوير أصبح من اليسير على المكتبات أن تقوم بتصوير المخطوطات التي ليست في حوزتها دون الاخلال بالقيمة التاريخية للمخطوطات الأصلية ، وبحقوق التملك الأثري للمكتبات والمتاحف والأفراد في مختلف أنحاء العالم ، في وقت تظل فيه المخطوطات الأصلية في أماكنها الموجودة فيها .

لقد أصبحت قضية إحياء التراث العربي قضية قومية ينبغي أن نتكاتف جميعاً أفرادا ومؤسسات ووزارات من أجل تحمل عبئها والنهوض بها . إذ من المؤسف أن تظل مكتبتنا العربية تفتقر حتى الآن إلى دائرة معارف عربية ، وإلى معجم تاريخي يؤرخ لتطور معاني الألفاظ ومدلولاتها واستعمالاتها عبر العصور المختلفة ، وذلك على غرار معجم اكسفورد في اللغة الانجليزية . كما اننا لا زلنا نفتقر إلى معجم للتراجم . ولا زلنا حتى الآن نلجأ في كثير من دراساتنا إلى دائرة المعارف الإسلامية ، وإلى المصادر الأجنبية لعدم وجود النظير في اللغة العربية . وهذا التقصير في إعداد دوائر المعارف العربية ، ومعاجم التراجم والألفاظ يعود في جانب كبير منه إلى تقصيرنا في الاحاطة بالتراث العربي ونشره خاصة ما يضم المواد الأصلية التي نحتاج إليها في دراساتنا ، وفي إعدادنا لمثل هذه المعاجم .

عدم ترك المجال للمستشرقين :

فبعض المستشرقين الذين تصدوا لتحقيق بعض كتب التراث غيروا في النصوص كي تأتي متفقة مع ما يريدون أن يشيعوه ، فظهرت في تعليقات بعضهم ودراساتهم التي يقدمون بها بين يدي النصوص الروح الصليبية بعد الباسها ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الانسانية المشتركة .

من هذه التحريفات قول جولد تسيهر عن زياد بن عبدالله البكائي وكان عالما من علماء الحديث ، ومن أهل الضبط والاتقان وهو من الرواة الثقاة لكن جولد تسيهر يقول عنه : «ويقول وكيع عن زياد بن

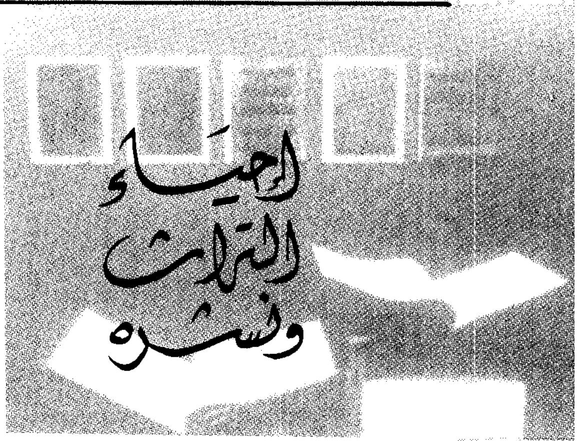

عبدالله ، البكّائي : انه مع شرفه في الحديث كان كذوبا ، ولكن ابن حجر يقول في التقريب : ولم يثبت ان وكيعا كذبه» .

ويعني هذا ان جولد تسيهر يريد أن يقول ان زيادا البكائى كان كذوبا وكي يثبت كلامه يأتي بشهادة «وكيع» أحد أعمدة علم الجرح والتعديل .

وأصل النص الذي حرفه جولد تسيهر كما جاء في التاريخ الكبير للامام البخاري : «وقال ابن عُقبة السَّدوسى عن وكيع : وهو (أي زياد بن عبدالله البكائي) أشرف من أن يكذب .. أي انه أبعد من الكذب بسجيته وفطرته وطبعه وشرف نفسه وعلوّ همته ، وسمو نفسه . ومع وضوح النص يحرفه المستشرق .

ومن تحريفات جولد تسيهر للتراث اتهامه للأمام الزهري بالوضع ومسايرة الحكام والمشي في ركابهم ، والحديث بلسانهم ويصفه بأنه التقى الصالح ويعترف بخطئه ويبرر ذلك الخطأ بأنه واقع تحت الاكراه من السلطة وهكذا بهذا الملمس الناعم يسوق تزييفه وتحريفه ، وينفثه في خفة ومهارة .

وسوف ترى التحريف المتعمد في النص كما ذكره جولد تسيهر بما يقلب المعنى رأسا على عقب . وأصل النص كما هو عند ابن عساكر وابن سعد : ان الزهرى كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس .. كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ، ولا يتكلوا على الكتابة .. فلما طلب منه هشام ، وأصر عليه أن يُملى على ولده ليمتحن حفظه كما تقدم ، وأملى عليه أربعمائة حديث ، خرج من عند هشام ، وقال بأعلى صوته : «يا أيها الناس ، إنا كنا منعناكم أمرا قد بذلناه الآن لهؤلاء ، وان هؤلاء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) فتعالوا حتى أحدثكم بها فحدثهم بالأربعمائة حديث» .

هذا هو النص التاريخي .. يقول الزهرى ، وقد رواه الخطيب البغدادي بلفظ آخر ، وهو : «كنا نكره كتاب العلم ـ أي كتابته ـ حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا ان لا نمنعه أحدا من المسلمين» .

أما جولد تسيهر فيروى النص ويأتي عند كلمة الأحاديث المعرفة بأل التعريفية ، ويجردها من أل فتتحول إلى نكرة وتصير (أحاديث) فتكون رواية جولد تسيهر على النحو التالي : «أكرهونا على كتابة أحاديث» . وهناك فرق بين أن يكون قوله كما رواه المؤرخون : «أكرهونا على كتابة

الأحاديث» أو كما رواه الخطيب «على كتابة العلم» وبين قول جولد تسيهر «أكرهونا على كتابة أحاديث» فحذف (أل) من (الأحاديث) تقلب الفضيلة رذيلة فالنص الأصلي يدل على أمانة الزهري واخلاصه في نشر العلم حتى انه لم يرض أن يبذل للأمراء ما منعه على عامة الناس المتعلمين مما جعله يقرر أن يبذله للناس جميعا ، ولكن هذا المستشرق الحقود ينسب للزهري انه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها فأين هذا من ذاك ؟.

لا ينبغي ترك المجال رحبا للمستشرقين فنحن نرى أفكار وأخبار ومعلومات أسلافنا من خلال رؤية المستشرقين لهؤلاء الأسلاف . إني أتمنى أن أرى «ابن رشد» من خلال نصوصه هو لا من خلال الدراسة التي قدمها عنه «أرنست رينان» (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م) في كتابه (ابن رشد والرشدية) وان أرى «الحلاج» الصوفي الفيلسوف (٨٥٧ ـ ٩٢٢م) من نصوصه هو لا من خلال ما كتبه عنه «ماسينيون» (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م) .

للدفاع عن العرب وبيان سبقهم في كثير من العلوم :

فكثير من العلوم والنظريات والأفكار التي يدعى بعض الغربيين ان الفضل في وجودها يرجع إليهم وانها نبت غريب عن المزاج العربي والعقل الاسلامي ، في الحقيقة بدأ نبتها عند المسلمين وأخذها الغرب عنهم وهي الآن عند الغربيين امتداد ناضج وتطور وبلورة لعناصر وأفكار أبدعها أسلافنا عندما فتحوا نوافذهم الفكرية على الثقافات والحضارات التي عاصرتهم أو ورثوها .

أن الحضارة الغربية قامت على ما قدمه العرب إليها إبان تفوقهم ، وجهود فرد أو جماعة في ميادين المعرفة تمهد السبيل لظهور جهود جديدة من أفراد أو جماعات أخرى . فالفكر البشري ككائن ينمو ويتطور ، فأجزاء منه تقوم بأدوار معينة في أوقات خاصة تمهد لأدوار أخرى تالية ، فاليونان قاموا بدورهم في الفلسفة والمنطق والعلوم ، ثم جاء العرب فأتموا ما بدأه غيرهم ثم من بعدهم جاء الغربيون ، وما كان لأمة أن تسبق الأخرى ، فالفرد أو الجماعة الحاضرة تأخذ عن الفرد أو الجماعة السابقة ثم تضيف وتنقح وتجدد وتطور وتسلم إلى الفرد أو الجماعة التالية ، ووجود ابن الهيثم وجابر بن حيان وأمثالهما كان لازما وممهدا لظهور جاليليو ونيوتن ، فلو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ، ولو لم يظهر جابر بن حيان لبدأ جاليليو من حيث بدأ جابر بن حيان ، وعلى هذا يمكن القول لولا جهود العرب لما بدأت النهضة الأوروبية العلمية في القرن الرابع عشر .

ان الدفاع عن العرب والمسلمين يمكن أن يجد الدليل والبرهان فيما يتم احياؤه ونشره من مخطوطات

علمية لهم ، تبين ابداعهم وانهم لم يكونوا ناقلين دون أن يضيفوا ويتوصلوا إلى حقائق جديدة ، ومبتكرات لهم فيها حق الابتكار والسبق والاختراع ، بل كان في نقلهم روح وحياة فهو نقل أبعد ما يكون عن الجمود ، وخطوا في العلوم خطوات فاصلات كان لها أبعد الأثر في تقدمها ، فبعد أن أطلع العرب على ما أنتجته قرائح القدماء في سائر ميادين المعرفة نقحوه وشرحوه وأضافوا إليه اضافات هامة أساسية تدل على الفهم الصحيح وقوة الابتكار .

ان احياء المخطوطات العربية في العلوم يؤكد حقيقة هامة ذهب اليها كثير من المفكرين وهي ان العلم بدأ أول ما بدأ في بلاد الشرق وسبق المشارقة الإغريق في العلوم . يقول سارتون «من سذاجة الأطفال أن نفترض ان العلم بدأ في بلاد الإغريق فإن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية في مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم ، والعلم اليوناني كان احياء أكثر منه اختراعا».

ومعنى هذا ان الشرق العربي كان مهدا للكثير من العلوم والمعارف ، وقد ورث العرب والمسلمون هذه المعارف والعلوم وقاموا بدورهم في تلقيها وجمعها ودراستها وهضمها والاضافة إليها ، وساهموا بذلك في ظهور النهضة العلمية الحديثة حتى قيل انه لولا الانتاج العقلي العربي لتأخر سير المدنية مئات السنين . كما قيل لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر من النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن للميلاد .

لقد عنى الخلفاء في الدولة العباسية بالعلوم وحرصوا على جمع التراث ودفع عجلة العلم إلى الأمام حتى ان الخليفة هارون الرشيد كان يقبل الجزية كتبا . بينما كان الخليفة المأمون يعطى وزن الكتاب المترجم ذهبا ، وأوفد المنصور والمأمون والمتوكل رسلا إلى القسطنطينية وغيرها من المدن البيزنطية للاتيان بالكتب اليونانية التي أهملها أصحابها ولم يعرفوا قيمتها ، وكان الخلفاء يرسلون العلماء إلى أعدائهم أباطرة الروم ليشتروا منهم الكتب العلمية اليونانية وخاصة كتب العلوم .

وكانت كتب علماء العرب والمسلمين في الكيمياء والرياضيات والطبيعة والفلك تدرس في معاهد وجامعات أوروبا وان كثيرا منها نقل إلى اللغة اللاتينية في ذلك الوقت في أسبانيا . وبفضل هذه الترجمات خرجت أوروبا من عصورها الوسيطة المظلمة ولولا انتقال العلم العربي إلى أوروبا لتأخرت حضارة الغرب عدة قرون . لقد ساهم العرب في مختلف العلوم في الرياضة ولا تزال كتب الخوارزمي تشهد بفضل العرب في الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات . كما أسهموا في التنجيم والفلك وهم

أول من قال بكروية الأرض وتوصلوا إلى قياس محيط الكرة الأرضية في عهد المأمون ، ولا يكاد يوجد عالم من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين إلا وله كتاب أو أكثر في علم الفلك . وكثير من الكلمات التي تستعمل في الفلك في اللغات الأجنبية كلمات عربية دخلت بنطقها ورسمها مع تحريف بسيط مثل العقرب acrab ، والعذراء adara ، والسماك azimeck ، وبنات نعش (القائد) benernash (alkaid) ، وذنب الجدى deneb algedi ، ورجل الأسد regulus .

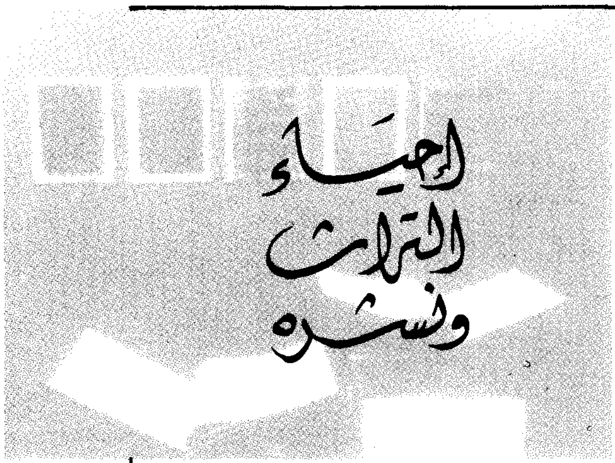

ويعد علم الكيمياء علما عربيا أصيلا نبغ فيه جابر بن حيان ، والرازي وبفضله ابتكروا صناعة

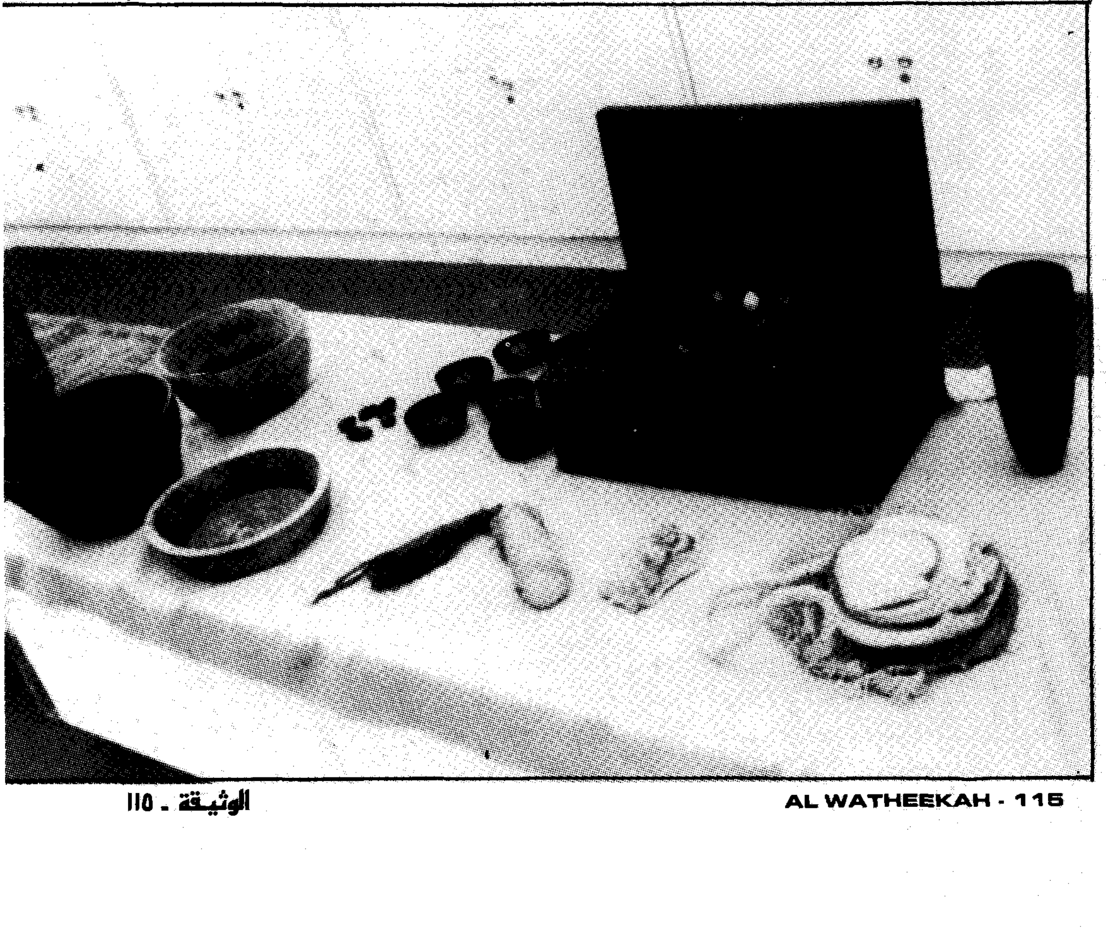

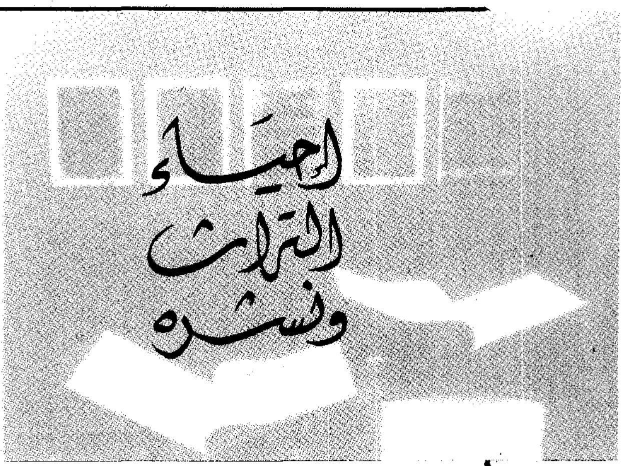

إحياء التراث ونشره

المعادن ، ومواد التجميل ، والورق ، والبارود ، والدباغة ، والأصباغ ، والشموع ، والعطور ، والزيوت النباتية ، والزجاج .

ونبغ علماء العرب في الطبيعة ودرس البيروني علة خواص المادة ، وعرفوا الأوزان النوعية لبعض المواد وقد توصل إليها البيرونى والخازنى . ولابن الهيثم السبق في كثير من علوم الطبيعة . كما سبق العرب في الطب . ويرجع الفضل لابن النفيس مدير مستشفى قلاوون في مصر لاكتشاف الدورة الدموية . ويرجع الفضل لابن مسكوية الذي كتب في التطور قبل داروين .

لقد ظلت كتب كثير من علماء العرب والمسلمين في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والكيمياء يعتمد عليها علماء أوروبا حتى القرن السابع الميلادي مصادر لدراسة جوانب كثيرة من العلم ومن هؤلاء العلماء ابن سينا ، وابن الهيثم ، والكندي ، والفارابي ، وأبو بكر الرازي ، وجابر بن حيان ، والخوارزمي ، والبيرونى وكثيرون غيرهم .

ويشير إلى هذا المعنى شاعر النيل حافظ ابراهيم في قصيدته «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها» ، فيقول بلسان اللغة :

رموني بعقم في الشباب وليتني
عَقمتُ فلم أجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن أي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدركا من
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي ؟
أرى لرجال الغرب عزا ومنعةً
وكم عز أقوام بعز لغات

دعم لترجمة العلوم وتدريسها باللغة العربية :

وعندما نثير قضية استيعاب اللغة العربية للتفكير العلمي المعاصر ، وقدرتها على التعبير عن المصطلحات العلمية تجدنا في حاجة للإجابة عن هذه الأسئلة بالإيجاب إلى إحياء التراث العربي في المجالات العلمية المختلفة من طب ، ورياضة ، وكيمياء ، وطبيعة ، ونبات .. وذلك للاستفادة من المصطلحات العربية التي وردت في كتب التراث عند ترجمة هذه العلوم من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، خاصة وان المترجمين العرب حلوا مشكلة المصطلحات التي اعترضتهم عندما قاموا بنقل علوم

اليونان وفارس والهند إلى اللغة العربية في أواخر العصر العباسي . لقد استفاد المترجمون العرب آنذاك من خصائص اللغة العربية وقبولها للتطور والنمو والزيادة بالاشتقاق والمجاز والنحت والتعريب في توفير المصطلحات العلمية . وعلى مرور السنين انصهرت الكلمات المعربة في بوتقة اللغة العربية ، واشتقت منها أفعال وأسماء وصفات ومصادر حتى كأنها عربية أصيلة منذ آلاف السنين .

إن ما يدور في كتب التراث العلمية من مصطلحات لأكبر رد على ما يزعمه القائلون بفقر اللغة العربية إلى المصطلحات العلمية . والحقيقة ان اللغة العربية قادرة بأساليبها على التعبير عن أخفى الأفكار وأبهت ظلال المعاني ، وكانت لغة العلوم الطبيعية والطب في القرون الوسطى ، بل كانت الترجمات العربية الواسطة التي انتقلت بها علوم اليونان وفلسفتهم إلى أوروبا في تلك العصور .

وفيما يلي نقدم مثالا حيا على طواعية اللغة العربية وقدرتها على الاحاطة واستيعاب العلوم في الوقت الحاضر ، وانها ليست عاجزة عن أن تكون لغة العلم والابتكارات ، لغة الطب والمخترعات . وهذا المثال يتجلى واضحا في التجربة الرائدة التي حملت لواءها جامعة دمشق ، منذ ما كانت الجامعة السورية ، ولم يكن فيها آنذاك غير معهدين احدهما للطب والثاني للحقوق . فقد قام في المعهد الطبي العربي ، منذ تأسيسه عام ١٩١٩ أساتذة نبشوا الكنوز اللغوية التي ألفت بها كتب الطب القديمة ، كقانون ابن سينا ـ وكامل الصناعة ، ومفردات ابن البيطار ، وتذكرة داود وغيرها من الكتب العلمية أو اللغوية ، ووجدوا فيها ضالتهم لاختيار المصطلحات العلمية ، ومع أن معظم الأساتذة الذين اختيروا للتدريس في هذا المعهد (الذي أصبح كلية فيما بعد) كانوا ممن تلقوا العلم في المعاهد التركية أو الفرنسية فقد شمروا عن ساعد الجد والعمل ونفذوا إلى صميم المعاجم المختلفة ووضعوا كثيرا من المصطلحات العلمية التي لم تكن موجودة .

(والآن وقد مضى على تأسيس كلية الطب أكثر من خمسين عاما ، نجد أن أساتذة هذه الكلية ، قد وجدوا بين أيديهم ذخيرة لغوية ثمينة ، أغنوا بها خزانة الكتب الطبية العربية ، بما لا يقل عن ثمانين مجلدا في فروع الطب المختلفة .

دعم للغة العربية :

لان اللغة العربية لغة التراث شعره ونثره ، واحياؤنا للتراث احياء للغة العربية ، فقد كتب الشعراء والكتاب والخطباء شعرهم ورسائلهم وخطبهم باللغة العربية الفصحى . ونحن العرب عندما نقوم بتحقيق ديوان شعر أو كتاب أدب ، أو لغة ، أو نحو ، أو كتاب في التفسير أو الحديث أو الفقه نكون قد أضفنا إلى اللغة العربية دماءً

جديدةً تساعدنا على السير في طريق كشف أسرارها وسبر أغوارها . ومعرفة المفردات والتراكيب الفصحى التي كان يستخدمها العرب إبان ازدهار اللغة العربية .

إن تحقيق كتب اللغة يبرهن على ثراء اللغة العربية لانها تقتنى ثروة طائلة من الأصول الثلاثية والرباعية ، والخماسية ، وتضم نظاما متكاملا لا يختل في الاشتقاق ، ونظاما متطورا في النحت ، بحيث تضارع غيرها من اللغات الكبيرة .

إن دعمنا للغتنا العربية ، واصرارنا على احياء تراثها اصرار على اثبات وجودنا العربي ، وعلى سيرنا في طريق وحدتنا وتضامننا ، فإن لم تقم الوحدة السياسية بين الأقطار العربية في وقت قريب ، فإن الوحدة اللغوية والثقافية هي المسعى الضروري ، الذي يجب أن يكون قريبا . ولن تتم هذه الوحدة إلا بالمحافظة على اللغة ودعمها ، واستخدامها في كل مجال ، فذلك يؤدي إلى وحدة الشعور والفكر ، والاتجاه بين العرب ، وتلك خطوة لازمة لمن يسعى نحو الوحدة السياسية .

هل نقوم بتحقيق كل التراث ؟

ليس من السهل على أي جهة أو باحث أن يقوم بتحقيق كل ما يقع تحت يده من كنوز التراث ، فالتراث فيه الغث وفيه السمين ، لذلك لا بد من اختيار النصوص التي نقدمها لأجيالنا الحاضرة والمستقبلة ، فنشر كل آثار الأولين عمل ضخم جدا لا يفكر فيه أحد بسبب المصاعب المادية ، واستغراق هذا العمل لسنين طوال يتحول فيها فكرنا الحاضر إلى تراث ، ولاقتناع الجميع ان في هذا التراث الكثير من النصوص الضارة ، والمعوقة ، والتي لا ضرورة لاحيائها ، وبذل الجهد والمال والوقت في تقديمها إلى الناس بينما هناك جوانب مفيدة هي التي يجب احياؤها وبعثها من جديد .

وعملية الاختيار ليست في حد ذاتها عملية سهلة فهي مسئولية وأمانة وقديما قالوا : «ان اختيار المرء قطعة من عقله» . ومسئولية الذين يختارون نصوص التراث ويحققونها وينشرونها بنفس درجة مسئولية الذين يبدعون ويؤلفون . فناقل الكفر ضالع ومتهم وليس بالبرىء .

ومن المهم أن نحرص في اختيارنا على الأعمال التي تمثل الجوانب المتقدمة والمستنيرة لفكر العصر الذي نشأ فيه المؤلف . ونقدم أعمال المبرزين في الموضوعات المختلفة والتي تمثل المعالم والقسمات الرئيسية للتراث وما يضمه من تيارات فكرية ، ومدارس .

إن احياء التراث ينبغي أن يبعد عن التعصب لفرقة أو مذهب سياسي أو ديني أو حزبي . وبذلك يدرك المحقق أن فروق الأمس التي باعدت بين الناس ليست هي الفروق التي تباعد أو تقارب بين الانسان المعاصر

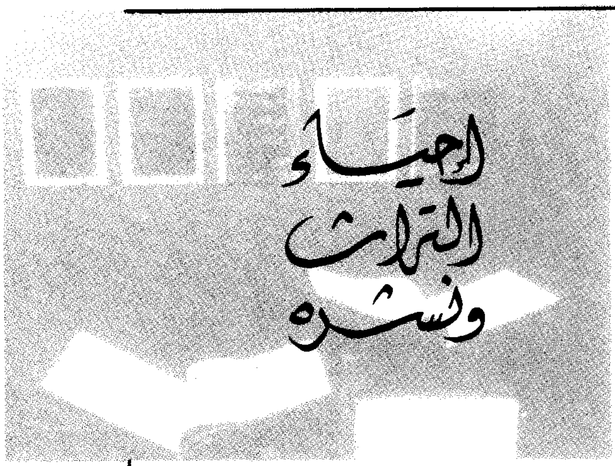

وأخيه الانسان . ان الكثير من صفحات هذا التراث التى تتوزعها آثار الفرق المختلفة والمذاهب المتعددة لو أحسن اختيارها واحياؤها وتقديمها والاستفادة منها لأمكن لهذا التراث أن يتحول إلى زاد يبلور لـلأمة شخصيتها المتحدة والمتميزة بدلا من أن يستخدم كما هو حادث الآن في اذكاء روح الخلافات ، وبعث الحزازات التي تخطاها التطور ، وعفا عليها الدهر منذ قرون .

ان اختيارنا ينبغي أن يتفق مع كل ما يدفع من نصوص إلى التطور إلى الأمام في الاتجاه الذي يخدم قضية حرية الانسان ورخائه ، وكل ما يضيف جديدا نجهله ، ويترتب على معرفته تقدم الانسان ورخاؤه وتطوره .

ان عملية الانتقاء والغربلة مطلوبة قبل البدء في التحقيق ، خاصة وان تراثنا العربي الاسلامي لم يخل من الانتحال والوضع والدس فليس كل ما رواه الرواة يعد صحيحا بل لا بد من التثبت والاطمئنان إلى سلامة الراوي ومعرفة رأي القدماء فيه خاصة وان كثيرا من العلماء القدامى تعرضوا لبعض الرواة وبهرجوهم ، وزيفوا ما جاءوا به من مرويات . وقد عرفت هذه الظاهرة في تاريخ الشعر العربي باسم «الانتحال» واشتهر من بين العرب رواة عرفوا بالوضع مثل محمد بن اسحاق بن سيار ، وخلف الأحمر . وعرفنا في تاريخ الفكر الاسلامي ظاهرة وضع الأحاديث التي سميت بـ «الأحاديث الموضوعة» خاصة وقد كثر وضع الأحاديث كثرة هائلة بعد انتشار الفتوح الاسلامية ، واتساع رقعة الدولة ، ودخول كثير من الأمم في الدين الاسلامي ، ولا سيما وان كثيرا ممن دخلوا في الدين الاسلامي دخلوا بألسنتهم لا بقلوبهم ، ولأسباب كثيرة حدث وأسندوا إلى الرسول ﷺ أحاديث لم يقلها ونسبوها إليه ، ولا أدل على استفحال الوضع من أن البخاري اختار أحاديثه وهي لا تعدو سبعة آلاف من ستمائة ألف حديث كانت متداولة في زمنه .

وقد وقفت بعض الدوافع وراء بعض الوضاعين الذين كانوا يضعون الأحاديث مثل الخلافات السياسية بين الأحزاب التي كانت تتناحر في سبيل الخلافة ، والتي دفعت كل حزب لافتعال الأحاديث تأييداً لمذهبه ، ومثل العصبية القبلية والقومية ، وتنازع قبائل العرب الرياسة

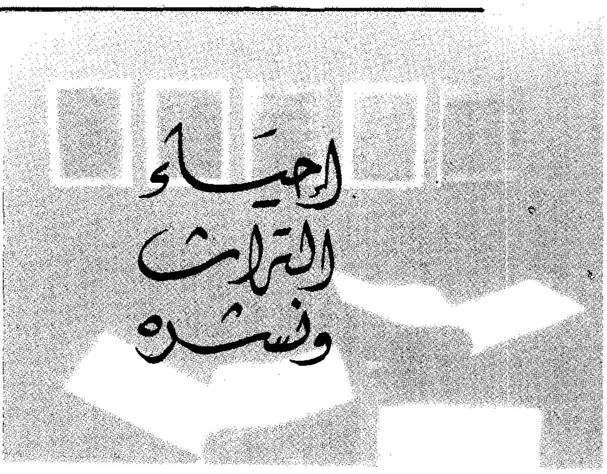

والمكارم ، فكانت كل قبيلة تضع الأحاديث في بيان فضائلها وتفوقها على القبائل الأخرى ، مثل الأحاديث التي وضعت لبيان فضل العرب على العجم ، والأحاديث التي وضعت لبيان فضل العجم ، وعلى هذا النحو كانت كل أمة تضع الأحاديث التي ترفع من شأنها وتعدد فضائلها . ومن ذلك أيضاً الأحاديث التي وضعتها الفرق الإسلامية لتأييد كل فريق لمذهبه . ومن ذلك الأحاديث التي وضعها الموالي وغير الموالي ممن اعتنقوا الدين الإسلامي كارهين ، وقد أضمروا في أنفسهم كراهيتهم ، وسوء نيتهم ، فأخذوا يضعون الأحاديث للتشنيع على الدين الإسلامي ، وقذفه بالترهات والأباطيل . وهناك فريق من الأتقياء والوعاظ وضع مجموعة من الأحاديث للترغيب والترهيب وأباح لنفسه ذلك بحجة ان هذه الأحاديث لا يقصد بها تحريم المحلل ، وتحليل المحرم ، ووجد بعضهم ألا بأس عليه في وضع اسناد لكل كلام حسن ، ومن هذا الطريق جاءنا عدد وافر من الأحاديث المكذوبة ، وهناك أسباب أخرى للوضع منها حب التقرب من ذوى المكانة والسلطان فوضع الوضاعون بعض الأحاديث رغبة في حب التقرب من ذوي المكانة والسلطان وارضاء لهم ، كما وضعت بعض الأحاديث رغبة في الاغراب والاطراف .

وقد مر تدوين الحديث بعدة محاولات منها المحاولات التي كانت في عهد عمر بن الخطاب ، ثم في عهد عمر بن عبدالعزيز ، وفي عهد المنصور قام الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) بجمع طائفة من الأحاديث في كتابه «الموطأ» .

وفي القرن الثالث ظهر حذاق المحدثين والناقدين الذين وضعوا أصولا دقيقة ميزوا فيها الأحاديث الصحيحة والمكذوبة ، وأشهر الكتب المؤلفة في هذا العصر صحيح البخاري (ت ٢٥٦هـ) ، وصحيح مسلم (٢٦١هـ) وسنن أبي داود (٢٧٥هـ) وسنن النسائي (٣٠٢هـ) وجامع الترمذي (٢٧٩هـ) وسنن ابن ماجة (٢٧٣هـ) وهذه الكتب الستة تعد أصح كتب الحديث ، ويضاف إليها مسند الإمام أحمد (٢٤١هـ) .

ولتمييز الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة نظر المحدثون والحفاظ في الحديث من طريقين :

الأول : طريق السند وهم الرجال الرواة للحديث .

الثاني : طريق المتن وهو نص الحديث نفسه .

فنظروا في رواة الحديث هل هم جميعا من الثقاة العدول المعروفين بصدق الرواية أو ان منهم من عرف بالكذب والوضع ، وخرجوا من هذا النظر ببحث سموه علم «التجريح والتعديل» درسوا من خلاله حياة كل راو ، ومقدار حفظه ، وهل هو أهل للثقة بحيث تؤخذ عنه مروياته أم لا ، فأسسوا لنا علماً جليل القدر لا يوجد مثله عند غير المسلمين لا في القديم ولا في الحديث .

وقد كلف هذا المنحى في دراسة أحوال الرواة وثقتهم وعدالتهم وضبطهم أو كذبهم وغفلتهم ونسيانهم العلماء كثيراً من المشاق لأنه يتطلب منهم دراسة عشرات الألوف من الرواة مع كل ما يتصل بهم .

وقد كان العلماء منهجيين في دراستهم متجردين من كل غرض شخصي واضعين خدمة الإسلام وسنة

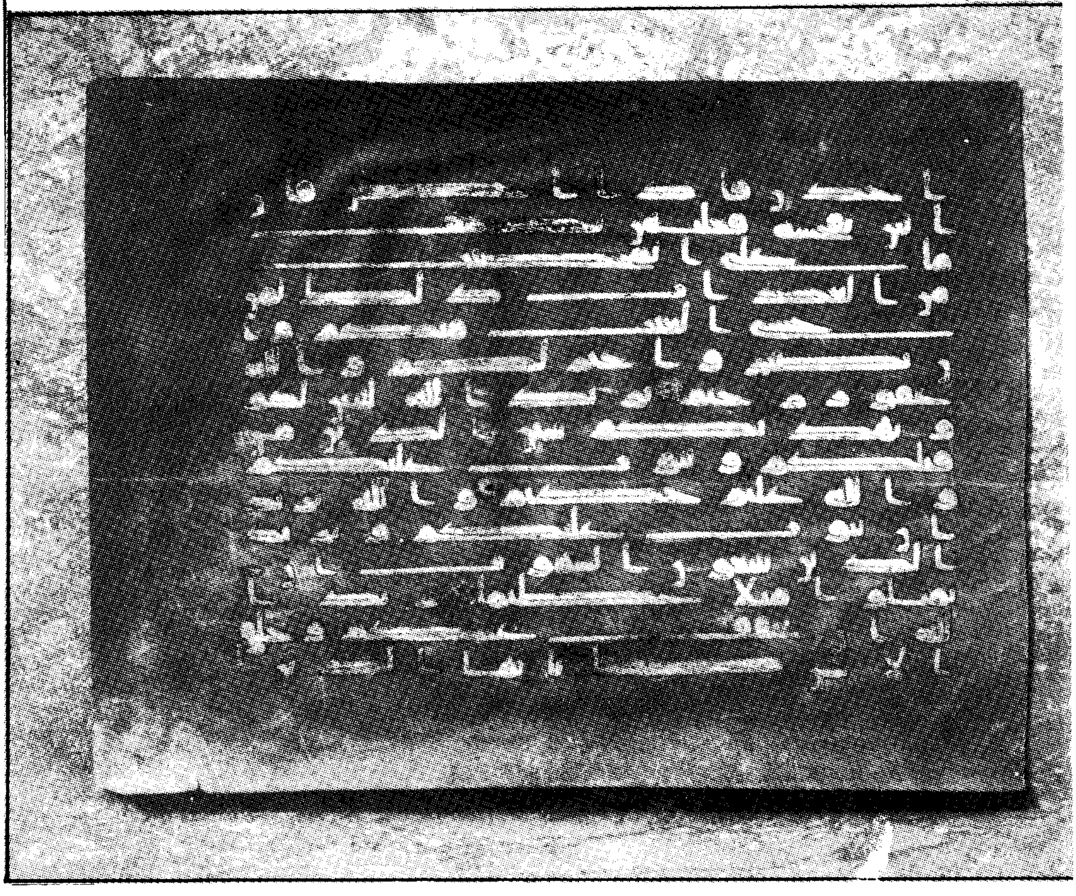

نبيه فوق كل اعتبار . فهم يفحصون كل راو فحصاً دقيقاً ، فاذا توصلوا إلى نتيجة أعلنوها صريحة ، مهما كانت صلتهم بالراوي فقالوا هذا ثقة أو عدل ، أو لا بأس به ، أولين الحديث ، أو كذاب ، أو رديء الحفظ ، أو ضعيف الذاكرة ، وما أشبه ذلك . وكان القصد من هذا العلم التأكد من صحة الأحاديث النبوية ، وقد حصل هذا المقصود بهذا العلم الجليل تمييز السنة النبوية من غير الصحيح .

ويعني ما سبق اننا نختار للتحقيق في كتب الحديث ما جاء من أحاديث مرويا عن رواة ثقاة عدل عرفوا بسلامة مروياتهم وبعدهم عن الوضع والكذب لتحقيق غرض من الأغراض .

ان كتب التراث ليست كتبا مقدسة فقد كتبها بشر منهم العلماء الكبار ومنهم التلاميذ . كما ان أعداء الاسلام من الاسرائيليين حرصوا منذ زمن مبكر على ادخال تحريفات على متون كتب العلماء فعلوا ذلك في كتب التفسير ، وفعلوا ذلك في كتب الحديث .. حيث ادخلوا بعض الأحاديث الموضوعة . فمن الأحاديث الموضوعة التي أدخلوها في الكتب :

- ان سيدنا موسى عندما جاء ملك الموت ليقبض روحه صكه ففقأ عينه .
- ان الله اشتكت عيناه فعادته الملائكة .
- ان الله لما أراد أن يخلق نفسه خلق الخيل وأجراها فعرقت فخلق نفسه منها .
- ان الله لما خلق الحروف سجدت الياء ، ووقفت الألف .
- الباذنجان شفاء من كل داء .
- إن الله اذا غضب أنزل الوحي بالعربية ، وإذا رضى أنزل الوحي بالفارسية .
- إن الأرض على صخرة ، والصخرة على قرن ثور ، فإذا حرك الثور قرنه تحركت الصخرة فحركت الأرض وهي الزلزلة .
- أربع لا تشبع من أربع : أنثى من ذكر ، وأرض من مطر ، وعين من نظر ، واذن من خبر .
- من أكل الأرز أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .
- لا تقطعوا الخبز واللحم بالسكين كما تقطعه الأعاجم ولكن انهشوه نهشا .

وحتى في كتب الفقه نحن في حاجة إلى أن نختار لان بعض كتب الفقه دخلتها مسائل كثيرة عندما نقررها على الطلاب قد تضر ولا تنفع وتشغل فكر الطالب ووقته عن غيرها من مسائل فقهية أخرى خاصة وان هذه المسائل تعد من باب الترف العقلي الذي كان عليه بعض العلماء ولم يعد الانسان بحاجة إليه الآن ، وبعضها افتراضات عقلية مستحيلة التحقيق ، وفيها تفاصيل واسعة فيما لا يحتاج إلى تفصيل وفيما يلي بعض هذه النماذج :

١ ـ لو استاك المرء بأصبع غيره وهي خشنة أجزأه ذلك ، قاله في شرح المهذب وفي إصبعه خلاف ، والراجح

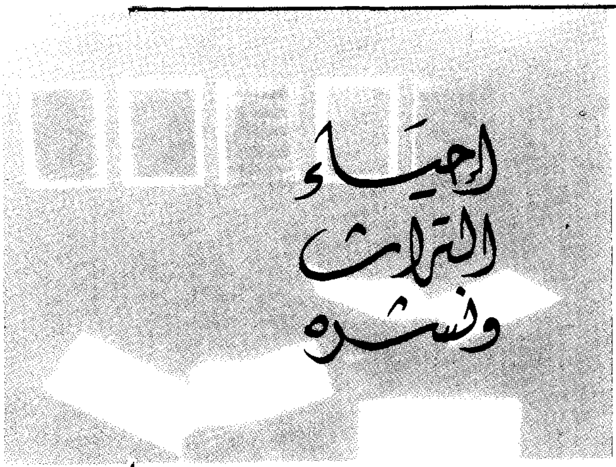

في الروضة لا يجزىء ، والراجح في شرح المهذب الاجزاء ، وبه قطع القاضي حسين ، والمجاملى ، والبغوى ، والشيخ أبو حامد ، واختاره الدريانى في البحر . فانظر كيف شغل هؤلاء العلماء جميعاً أنفسهم بهذه المسألة الساذجة التي لا يعقل أن تحدث على مر السنين .

٢ ـ لو غرز الصائم سكينا في ساقه لم يفطر ، ولكن لو غرزها في جوفه فإنه يفطر .

٣ ـ لو أدخل الصائم بعض خيط في جوفه قبل الإمساك في رمضان ، أو بلعه ، وبقى البعض الآخر خارج الجوف فإنه يفطر إذا شد الخيط أو أخرجه من جوفه لانه ضرب من القيء ، ويفطر كذلك إذا ابتلع الجزء الخارجي ، وإن ترك الخيط لم تصح صلاته لاتصاله بالنجاسة في جوفه والطريقة إذن أن ينزع الخيط من فمه وهو نائم ، أو يجبره الحاكم على اخراجه فيكون قد أخرجه مكرهاً .

ومع الفروض وجدت الحيل التي تحارب روح الإسلام ولنضرب لذلك مثلين :

١ ـ إذا أراد المالك أن يتخلص من دفع الزكاة فإنه يهب أمواله لزوجته قبل أن يحول الحول ، وترد الزوجة المال لزوجها قبل أن يحول الحول على ملكيتها للمال ، وهكذا ، وعلى هذا لا تجب الزكاة على أي منهم .

٢ ـ إذا أراد أن يأخذ ربا عن قرض فإنه يبيع للمقترض شيئا يملكه بثمن مرتفع ويقبض الثمن ثم يشتريه من المقترض بثمن منخفض ، ويبقى له الفرق ويمنحه القرض بعد ذلك بدون زيادة ، لأنه أخذ الزيادة مقدماً عن طريق ذلك البيع .

وينبغي أن نقف من تعليقات بعض المستشرقين على بعض كتب التراث التي نشروها موقف الناقد وخاصة في مقدماتهم التي كتبوها بين يدي النصوص . ففي كثير من كتاباتهم دعوة إلى التشكيك وزرع للفتن ولكن ذلك لا يخفى على أريب ولله در أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور حين قال : «إنه ما أسر أحد معصية قط إلا ظهرت في آثار يده أو فلتات لسانه» . وأسلوبهم ومداخلهم فيها ذكاء .. فهم يذكرون العيب فيمن يقصدونه ويذكرون بجانبه عشرة محاسن ، ليست لها أهمية كبيرة كي يقف القارىء خاشعا أمام سعة قلوبهم وسماحتهم ويسيغ ذلك العيب الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن .

وكثير من هؤلاء المستشرقين يَدُسُّون في كتاباتهم مقداراً خاصا من

إحياء
التراث
ونشره

«السم» ويحترسون في ذلك فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم حتى لا يثير ذلك في نفس القارىء الحذر ، ولا تضعف ثقته بنزاهة المؤلف .

ان كتابات هؤلاء وتعليقاتهم على كتب التراث أشد خطرا على القارىء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها .

وإذا مضينا ننظر في اختيارات بعضهم من كتب التراث نجد اهتماما بموضوع الفرق الاسلامية ونشأتها وما ثار بينها من خلاف واتجاهاتها الفكرية المتعارضة ، وكأنهم يريدون لهذه الخلافات أن تظل حية متأججة تشغل الأمة الاسلامية ، وتستهلك قواها ، وتستحوذ على فكر علمائها ، ولب قادتها فتضرب بينهم الفرقة ، وينشأ الخلاف ، وللأسف فإن كثيرا من ذلك حدث . وفيما يلي بعض أسماء هذه الكتب التي حققوها :

- أخبار الحلاج الحسين بن منصور ت ٣٠٩ ـ ٦٢٢م . نصوص قديمة جمعها ماسينيون .
- الطواشين للحلاج .
- المنتقى من كتاب الرهبان لأبي الدنيا .
- الأئمة المستورون للمهدي عبدالله .
- تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمونة اليهودي سعد بن منصور (٦٨٣هـ ـ ١٢٨٤م) .
- رسالة راهب من فرنسا إلى المقتدر بالله
- الديا سطرون أو الانجيل الرباعي ألفه باليونانية ططيانس ، وترجمه ابن الطيب البغدادي .
- مثالب عليّ بن أبي بشر (أبي الحسن الأشعرى) للأهوازي الحسن بن علي بن إبراهيم المقرىء (٤٤٦هـ ـ ١٠٧٤م) .
- رسالة في الحكمين وتصويب أمير المؤمنين عليّ في فعله للجاحظ .
- تعبير الرؤيا ـ أرطاميدوس ، نقله إلى العربية حنين بن اسحاق (٢٦٠هـ ـ ٨٧٣م) .
- الحيل (في الفقه) للخصاف أبو بكر أحمد بن عمرو (٢٦١هـ) .
- ديوان أبي نواس .
- المفاخرة بين الجوارى والغلمان .
- كتاب ألف ليلة وليلة .
- كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

لقد قام المستشرقون بتحقيق «ألف ليلة وليلة» وطبعوها طبعات متوالية ،

وأجروا حولها بحوثا ودراسات جعلوها لنا زاداً وصوروا لنا هذه القصص الخرافية كأنها حقيقة حدثت وانها الصورة الحقيقية لحياة المسلمين وقادتهم في العصر العباسي ، وحثوا الدارسين أن يرجعوا إليها لرسم صورة تاريخ آبائهم وأجدادهم حتى شرد خيال أحد الكتاب فكتب يقول : «كان هارون الرشيد إذا صعد على الدرج في قصره يصطف له صفان من العذارى على الجانبين ، وهن عاريات الصدور ومتعطرات متبرجات بزينة حتى يتكىء بيده على النهود» .

ومما يدل على احتفاء المستشرقين بألف ليلة وليلة حشدهم هذا العدد الضخم من المستشرقين ليكتبوا مادتها في دائرة المعارف الاسلامية بين دراسات وترجمات مما استغرق ٣٥ صفحة كاملة .

ويتألم المرء أن تقرر احدى كليات الآداب في جامعة عريقة في وطننا العربي قصة ألف ليلة وليلة الحقيقية على الطالبات لدراستها وعندما يشكو والد احدى الطالبات من تكليف ابنته بدراستها وما في القصة من أدب مكشوف ومواقف عهر وفجور يثور أستاذ المادة ويسب ويشتم ويتهم كل من يخالفه رأيه في دراسة هذا الفجور بالجهل بالتراث .

ان هارون الرشيد الذي صوره هؤلاء المستشرقون في كتاباتهم بصورة الخليفة الفاجر المنحل كما جاء عن ول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) . وكما جاء عند مرجليوث في كتابه (محمد ومطلع الاسلام) وما حاولوا أن يروجوه من قاله سوء عن علاقته بجعفر البرمكى لم يكن كذلك ، فهارون الرشيد قام بغزوات كثيرة ، وبنى وعمر ، ونشر العلم والحضارة والنور ، وقاد الجيوش بنفسه وكان يقضي الشهور بملابس الميدان ، وهو الذي أذل أباطرة الروم حتى مات مجاهدا ودفن في طوس على أطراف دولته .

أما عن كتاب الأغاني فقد قام المستشرقون بتحقيقه وطباعته واخراجه ونشره ، كما قاموا بعمل دراسات وأبحاث حوله . ومع تسليمي بقيمة كتاب الأغاني من الناحية الأدبية وكونه مصدرا من مصادر دراستنا للأدب العربي من بعض جوانبه ، إلا اننا لا ينبغي أن نأخذ كل ما جاء منه على أنه روايات لا يأتيها الباطل . أو أن ندرس تاريخ الفكر من فقه وتفسير وعقيدة من خلال روايات الأغاني بحيث يستند إلى رواياته من يطعنون في رواة السنة وفتاوي الأئمة ، وآراء الفقهاء ، وأحكام القضاة .

وما ورد في كتاب الأغاني من لهو وعبث ومجون لا يمثل الأمة الاسلامية جميعها إنما يمثل بعض طوائف الفاسدين وهم في كل مجتمع من المجتمعات . خاصة وان بعض علماء الرجال طعنوا في روايات أبي الفرج الأصفهاني وقالوا : «كذاب يأتي بالعجائب والغرائب بحدثنا وأنبأنا» .

وتحدثوا عن نزعته الشعوبية وأهوائه المذهبية وذكروا أن معظم ما في الكتاب أكاذيب وأخبار ملفقة وروايات منتحلة ساقها المؤلف للتسلية والمتعة ، وليس لها من السند العلمي أساس

إن كثيرا من رجال الجرح والتعديل يضعون مؤلف الأغاني مع الكذابين وأصحاب الأهواء والمذاهب الباطنية الذين يهدفون إلى هدم قيم الاسلام وتشويه تاريخ المسلمين والنيل من السلف الصالح .

وقد نص بعض القدماء على كذب الأصفهاني . قال الخطيب البغدادي حدثني أبو عبدالله الحسين بن محمد بن طباطبا العلوي قال : سمعت أبا محمد الحسن بن الحسيني بن النوبختي يقول : كان أبو الفرج الأصفهاني أكذب الناس ، كان يشتري شيئا كثيرا من الصحف ثم تكون كل رواياته منها» .

وقال هلال بن المحسن الصابى : «كان الأصفهاني وسخا قذرا» . وقال ابن الجوزى «ومثله لا يوثق بروايته» . يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ، ويهوّن شرب الخمر ، وربما حكى ذلك عن نفسه ، ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر» .

وقال الشيخ الذهبي : «رأيت شيخنا تقى الدين بن تيمية يضعفه في نقله ، ويستهول ما يأتي به» .

وفي العصر الحديث ذكر الدكتور محمد أحمد خلف الله ان الاصفهاني أخذ عن الكذبة . ويقول الاستاذ وليد الأعظمى : ان ثمة كتب سخيفة كاذبة هادمة ، امتلأت صفحاتها بالمخازى والمجون ، والمفاسد والمباذل والفضائح تحت ستار الأدب والسمر والغناء ، وجمع كل خبر مهما كانت درجته من الصدق أو الكذب ، وأبو الفرج الأصفهاني من أبرز هؤلاء المتسترين تحت ظلال الأدب والأخبار والحرص على تدوين ما سمع وقرأ فترى الأعاجيب في كتابه الأغاني ، وهو يجمع في سنده بين الثقاة والكذابين وبين الزهاد والفساق والصالحين الأبرار والطالحين الأشرار ونحن نعلم ان الكاذب قد يروى عن الصادق والثقة ، ولكن الصادق الثقة لا يروى عن الكاذب أبدا .

ان كتاب الأغاني طافح بالأخبار التي تسىء إلى آل البيت النبوي الشريف وتجرح سيرتهم وتقدح في سلوكهم وتهون أمرهم وشأنهم ، وتجعل منهم عشاق اللهو والطرب والعبث .

ولا يرضى كل مسلم غيور وعربي أصيل بهذا الغثاء الذي ورد في كتاب الأغاني.

وعلى الرغم من كل ما قدمت فلا أستطيع أن أقطع بأن كل المستشرقين كانوا ضد التراث فمنهم من خدم التراث ، واجتهد في جمع المخطوطات والنسخ المتعددة لكل كتاب من مصادر مختلفة في أنحاء العالم ولكل هؤلاء الشكر على ما قدموه للغة العربية وما علينا الا أن

نلتقط الخير من مؤلفاتهم وتحقيقاتهم متنبهين إلى مواطن الدس والتحريف لنتجنبها أو لنكشفها أو لنرد عليها لان الحكمة ضالة المؤمن ان وجدها فهو أحق بها .

الدكتور محمد عبدالقادر
جامعة البحرين

* * * * *